الترجمة وتدبير الاختلاف اللغوي والثقافي: عن الاستعداد لاستضافة الآخر

Translation and Managing Linguistic and Cultural Diversity: About Hosting the Other.

وسام مخالفي[1] *، سامية عليوي[2]

[1] مخبر الأدب العام و المقارن، جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)

wissemmekhalfi0@gmail.com

[2] جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر) . allioui.samia620@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/02/28 تاريخ القبول: 2022/04/27 تاريخ النشر: 2022/12/14

ملخص:

لا تخفي الترجمة إقرارها بالاختلاف فلسفة وموقفا، ودفاعها عنه، لأنها تأتي بالغريب وتدعو إلى الاطلاع عليه؛ و إلى تلقيح ثقافة الوصول به، و لكنها تلحّ دوما على فكرة العود الأبديّ للأصل؛ فتؤمّن بذلك تعدّده و تفتح بابا للتّنوع بما يفيد مع الإيمان بالتعايش والتفاعل؛ هكذا تظهر الترجمة الاختلاف والتّنوع الثقافي والتعدّد اللغوي فما هو دور الترجمة في تدبير المشاكل اللغوية والثقافية والحضارية؟ هل التنوع والتعدد نعمة أم لعنة؟ و هل هناك تصوّر ترجمي يؤسّس الوحدة في الاختلاف؟ وكيف ندرك العالم في ظلّ ما يزخر به من تنوع ثقافي وتعدد لغوي؟

كلمات مفتاحية: *الترجمة؛ التنوع الثقافي؛ التعدّد اللغوي؛ الاختلاف؛ تدبير.*

Abstract:

Translation neither denies diversity as a philosophy and a mindset, nor refutes defending it because it brings the foreigner and exposes him and calls for reaching him while insisting on the eternal return to the original. This way, translation assures variety, opens a door for coexistence and interaction and shows linguistic and cultural diversity. What is the role of translation in managing linguistic, cultural and civilization problems? Is diversity a blessing or a curse? How can translation be recognition to the other? How can we perceive the world in light of its cultural diversity and multilingualism?

Keywords: *translation, multiculturalism, multilingualism, diversity, management.*

• المؤلف المراسل: وسام مخالفي ، الإيميل : wissemmekhalfi0@gmail.com

1. مقدمة :

الترجمة منفى المترجم الاختياري من أخمص قدم النّص حتى جبهة عنوانه؛ بهيّة إلاّ أنّها ما صدقت ما عاهدت عليه المترجم، يوم أغوته وفتّحت إمارة الكلمات على مصراعيها أمامه وقالت: هيت لك. إنها لعوب بآليّات ساحرة؛ وهي نزوح واستقبال وهجرة وتغيير ملامح؛ من شأنها أن تغيّر ملامح النصوص كيفما شاءت فتجعلها إمّا ذميمة وإمّا فاتنة؛ ترفع تشكّل النصوص وتخفضه فتتباين وتتضاد تقصي وتدني، وليس لأحد سلطان عليها؛ حتى إنّه بإمكانها أن تجمع مختلفين وتفرّق مؤتلفين.

الترجمة هي جسر السلام والتعاون والتنوع الثقافي بين الشعوب، والمترجمون هم حملة مشاعل التفاهم والخير والجمال والعدالة في العالم؛ ورسالتهم هي التضامن من أجل تعزيز هذه المثل والقيم في العالم أجمع؛ وإنّ من الحقائق التي لا مراء فيها أنّ المترجم يجد نفسه أثناء ممارسة عمله الترجمي يتعامل مع لغتين، وبالتالي ثقافتي هاتين اللغتين، على اعتبار أنّ اللغة هي وليدة ثقافة بعينها، وهذه الثقافة تنتج من بيئة لها خصائصها المتميّزة عن غيرها من البيئات، في إطار التنوّع الثقافي والإنساني الذي زودنا به خالقنا سبحانه وتعالى. وتكملة لما سلف ذكره؛ فإنّنا نؤكّد بأن الترجمة تخوض معركتها في ظلّ ثقافتين وبيئتين متنوعتين، وهنا يبرز دور المترجم في ظلّ هذا التنوع، والصيغة التي يوجدها حتى يتعامل مع هذا الاختلاف المفروض عليه ممّا يبرز عظم المسؤولية التي تقع على عاتق المترجم وحساسية مهمّته.

وحتى نلقي الضوء أكثر على هذا الموضوع، وإدراكا منّا لخطورة وحساسية التنوع الثقافي والحوار من أجل التنمية والانفتاح والتبادل المثمر المفضي لبناء ثقافي وفكري واجتماعي واقتصادي عالمي، تسلّط هذه الورقة البحثية الضوء على مشكلة أساسية هي ضرورة الحفاظ على التنوع الثقافي واللغوي وهي مسألة ملحّة بالنسبة إلى العالم أجمع، إذ نرى أنّ الآلية الأفضل للحفاظ على التنوع الثقافي هي الترجمة لأنها لغة العالم ولسان متعدد اللغات، ولأنّ الترجمة بذاتها هي اعتراف بالآخر وبناء جسور سلام وتعاون وتواصل وتلاقح بين مختلف الشّعوب والثقافات.

وعليه، ما هو دور الترجمة يا ترى في الحفاظ على التنوع الثقافي واللغوي؟ وما هي الميكانيزمات التي يعتمدها المترجم لأجل الإسهام في الحفاظ على هذه الثروة التي هي من صميم رسالته؟ وما هو دور الترجمة في فض المسافة وإذابة التباين الموجود بين لغات العالم وثقافاته؟ تساؤلات كثيرة ستتمّ الإجابة عنها عبر فقرات هذا المقال؛ مع الخروج بتوصيات من شأنها الإسهام الفعلي في الموضوع.

2 – الترجمة و تفاعل الثقافات:

تقوم الترجمة بدور فعّال في تفاعل الموروثات الثّقافية وتمازجها، فهي تطلع الشعوب بشكل مدوّن على تجارب الأمم وخبراتها وإنجازاتها العلمية ومواريثها الأدبية والفنية. ومن روائعها أنّها تجعلنا نكتشف عوالم جديدة نسبر أغوارها فيما بعد.

ليست الترجمة تقنية لغوية فحسب، وإنّما هي "فعل إبداعي ونشاط لغوي، وضرورة حضاريّة، وموقف أيديولوجي"[1] كذلك، تؤطّرها كلّها طبيعة العلاقات المتبادلة بين مجتمعي النص المترجَم منه والمترجَم إليه في لحظة تاريخية معيّنة؛ ومن هنا يستمدّ الحديث عن موضوع دور الترجمة في الحفاظ على التنوّع الثقافي و اللغوي مشروعيته.

هل على الترجمة أن تختار بين طريقين؛ أحدهما إلغاء الاختلاف حرصا على الوحدة، والثاني إلغاء الوحدة حرصا على الاختلاف؟ والسؤال الأهمّ: هل ثمّة تسوية تجمع الطّريقين لتقديم تصوّر عن الترجمة يؤسّس الوحدة في الاختلاف؟

الترجمة كشف ذات أخرى في فضاء اللّغات والثّقافات، ولعلّ أثرها أشدّ وضوحا في التّفاعل الثّقافي؛ فهي تكمن في منظومة المفاهيم الثقافية مثل التبادل الثقافي، والمثاقفة والتغلغل الثقافي والإفراغ الثقافي والغزو الثقافي والاستلاب والانفتاح على الآخر أو الانغلاق على الذّات والعولمة باعتبار أنّ الترجمة هي التي تنقل المضامين الثقافية المتنوعة من بيئة إلى أخرى، ولكي يكون التفاعل الثقافي مع الآخر فاعلا ومنتجا، ينبغي أن نعرف الذّات بالإضافة إلى معرفتنا الآخر.

لهذا السّبب تعدّ الترجمة وسيلة من أهمّ وسائل التّلاقح الثّقافي تحقيق التّقارب الفكري المنشود بين مختلف الأمم الشعوب... ممّا جعل البعض يصرّ على نعتها بالخيانة الخلاّقة... لأنّها تعطي الأثر واقعا جديدا، إذ تتيح له إمكانيّة تبادل أدبي جديد مع جمهور أوسع ، ولأنّها تغريه ليس فقط بالبقاء بل بوجود ثان أيضا..."[2] ،هذا ما يضمن تفاعلا واسعا وثرياّ بين مختلف الأقطار الفكريّة، وأكبر دليل على ذلك التّحول الجذري والنّوعي في مسار الحضارة العربيّة الإسلاميّة في القرنين الثّاني والثّالث الهجريّين بفضل حركة الترجمة آنذاك.

3 - الترجمة من نقل اللغة إلى نقل الثقافة:

يرى أنطوان ميّيهANTOINE MEILET أنّ "الترجمة لا تكون بالنقل من لغة إلى لغة فحسب،بل من عالم إلى آخر،لأنّ كلّ لفظة تعبّر عن حضارة معيّنة، فمعرفتنا الدقيقة بألفاظ لغة من اللغات تعني معرفة بتاريخ حضارتها " [3] ؛ وما يكون أمرا بديهياّ في إحدى الثّقافتين قد

يحتاج إلى شرح في الثّقافة الأخرى. وهذا الاختلاف الثقافي يقيم الدّليل على ضرورة اختلاف النص المترجم عن النص الأصلي فإن شاء المترجم أن يبتعد عن النص الأصلي، احتاج إلى شرح أو حاشية تقوم شاهدا على الاختلاف لأنّه إن لم يفعل ذلك خدع قارئه، وأدخل في وهمه أنّ ثقافة الآخر لا تختلف عن ثقافته .

تشير هذه الفرضيّة بوضوح إلى عدم كفاية النّقل من لغة إلى لغة وأنّه على المترجم أن يكون على بصيرة بالثقافتين: المنقول عنها والمنقول إليها، وأن ينقل البعد الثقافي إلى قارئه، إن كان يراد للتّرجمة أن تقوم بدورها همزة وصل بين الثّقافات.

لا يتكلّم سكّان الأرض اللغة نفسها لذا "فإنّ نشاط الترجمة يصبح ضروريا للسّماح بالتواصل بين أفراد تفصلهم طرق ذات بنيات مختلفة في تصوّر العالم"[4] . وعلى هذا الأساس، تغدو عملية الالتقاء بالأثر الأجنبي عادية وظاهرة أكيدة؛ صحيح أنّ "فارق الزمن والمكوّن الحضاري، يؤدّي كلّ منهما دوره في تنوّع فعل الترجمة، وأنّ لكلّ عصر من عصور الترجمة خصائصه الموضوعية والفنّية. ولكن، لا جدال فيما تعارف الدّارسون عليه من دور الترجمة، وما تقوم به من وظيفة حضارية، تكتسي طابع التّقارب فيما بين الشعوب، ناهيك عن تقارب الثّقافات والمعارف "[5] ، ممّا يسمح بانتقال وجهات النّظر الموجودة في النّص المصدر إلى النّص الهدف. وهذا يقودنا إلى فنّ الاتّصال مع الآخر المختلف تماما في اللغة والبرمجة والواقع. ممّا يسمح مع الوقت باتساع النص المصدر وانتشار محمولاته؛ فالنصوص حمّالة أوجه بالضرورة. وعليه، تسهم الترجمة في تلاقح النصوص والثقافات ممّا يرفع مستوى الإدراك لدى الطرفين – المصدر والهدف–. وهذا يسمح ولا شك بتوسيع الآفاق ويجوّد النصوص. والحال هذه، تكون الترجمة استراتيجية أساسية في تنوع النسق الثقافي وليست "مجرّد نقل نص من لغة أولى إلى لغة ثانية، بل هي نقل حضاري للنص الأوّل من حضارة إلى حضارة، أو من نسق ثقافي ما إلى نسق ثقافي آخر. وفي هذه الحال، يفترض ألاّ يكون النص المصدر منعزلا عن سياقه الحضاري الأوّل الذي خرج منه، ولا عن سياقه الحضاري الثاني الذي دخل فيه، على أن تكون عملية النقل –هذه– محمّلة بسياقات حضاريّة متعدّدة تجعل الترجمة نقلا حضاريّا وليس مجرّد استبدال لفظ بلفظ أو عبارة بعبارةمن اللغة المصدر إلى اللغة الهدف "[6].

صحيح أنّ لكلّ أمّة مقوّمات ثقافية تتطوّر وتتقدّم وفق مفاهيمها الخاصّة بها، غير أنّ الأصحّ من ذلك هو المشترك بين الأمم من عوامل وحضارات على اعتبار وجه الحاجة إلى

التعاضد فيما بينها؛ ولا يتحقّق هذا إلاّ عبر التّواصل المستمر بين الذّات والآخر " وهذا ما نعتقده جازمين من أنّ عوامل ازدهار أيّة حضارة لا تتمّ بالصورة المرجوّة إلاّ بمدى احتكاكها بالعالم الآخر، والإفادة من الحضارات الأخرى عبر آلية الترجمة التي من شأنها أن تفعّل المثاقفة بين الشعوب والأمم"[7].

الترجمة استثمار مربح إذن، من حيث أنّها تسعى سعيا حثيثا لتحقيق نشاط إنتاجيّ داخل النّسق الثّقافي والمنظومة الجديدة للنّص الهدف، عبر استغلال فرصة الاتّصال مع الآخر لتتجاوز هذه الذات ذلك القديم المألوف وترقى بفضل التّبادل والتّآزر والتّعدّد –نتيجة تعدّد الآخر–؛ وبالتالي تتجدّد الخبرة الإنسانية وتنبعث بنفس ولون ورائحة وشكل وبناء جديد على كافة المستويات، العقلية أو الوجدانية أو الاجتماعية أو الثقافية بوجه عام وخاص على حدّ السّواء.

ممّا يضعنا أمام حقيقة لا مراء فيها هي: إبادة العزلة المعرفية عن بكرة أبيها؛ فذلك القادم إلى النّصّ الهدف يتحوّل ويتحوّر ويتشاكل ويتمازج وما هو سائد، فيغدو النص المترجَم على عيوبه واحة بحدّ ذاتها. فالمترجِم لا يكتفي بترجمة النص فحسب؛ بل عليه أن يشتغل عليه بأدوات لغته الأم –الهدف– كي يدخل في سياق ثقافته "ولعلّ المحصّلة من وراء هذا هو تكوين الذات مع الآخر؛ أي أنّ كلاّ من الذّات والآخر ليسا مستقلّين عن بعضهما، من منظور الأخذ والعطاء "[8].

4 - تدجين المتنوّع المختلف:

من شأن قراءة فكر الآخر أن يخلق "مشروعا تنويريّا، لما يحمله من تصوّر مغاير للفكر المحلّي، الذي غالبا ما كان يتعامل مع الذّات –في رصيدها المعرفي– بنوع من القداسة، إلى أن بدأ يتحرّر نسبيا بالاحتكاك مع الآخر"[9]. وحينذاك تنصقل الثقافة المحلية، وينسلخ كلّ قديم بالٍ ويتجدّد كلّ مقدّس وتتفتّق الأذهان وتنفتح معها طرق التحليل والمعالجة، ويتقوّم الذّوق ويهذّب عبر الاحتكاك بالآخر في أطر علاقة جديدة قائمة على أسس معرفية جديدة ومتطوّرة؛ فيتقهقر التّراجع وينحسر معه الانغلاق مقابل انفتاح مقصود نتيجة التّعرّف إلى الآخر، من خلال رصيده الثقافي والحضاري على العموم.

إلاّ أنّ في الأمر مجازفة كبيرة وقفزة نوعيّة عالية، والمعروف أنّه كلّما كانت القفزة أكبر وأعلى، كانت الوقعة أشدّ وأعنف، وربّما قاتلة، وقد تحسب الذّات أنّه قد يفوت الآخر ما تسعى

إليه وتدبّر له من الأخذ والتّطلّع على ثقافته ومعرفته بغية فائدة أكثر للتّنمية وتوجيه رؤيا المعرفة لديها عبر استشراف فكر الآخر.

فمن شأن الانسياق وراء الآخر أن يخلق تصدّعات وشروخات عميقة تنعكس على الذّات المحلّيّة بتفاوت، وعلى أصعدة عديدة. كأن تهزّ صورة الذّات وتبيّنها ضعيفة ثابتة ورتيبة لا تتغيّر مهما استجدّ من أمور أو أنّها متخلّفة كثيرا بحيث يصعب مع تخلّفها ذاك اللّحاق بركب ثقافة الآخر وتقدّمه. وحتّى أنّها قد تزعزع إحدى المفاهيم الأساسيّة الكبرى والمقدّسة في الذّات المحليّة التي قد تكون سبب تميّزها وتفرّدها ووجودها؛ مما يرسّخ لفكرة توطين الفكر الآخر – المغاير في المعرفة المحلية-؛ وهو خطير كما نرى ومن شأنه أن يجعل ثقافات تضمحلّ، لتحلّ مكانها ثقافات أخرى تعسّفيّة. وهذا ما على الذّات المحلّيّة أن تضعه في الحسبان حفاظا على كينونتها وخصوصيّاتها الثّقافيّة كي لا تضمحلّ وتفنى وتزول.

ويضعنا كلّ ذلك، أمام فكرة مؤدّاها: أنّه لابدّ لأيّ حضارة، -وليتحقّق لها التّواصل مع حضارة الآخر-، من التزام شرط قابليّة التّفاعل كي تضمن الدّخول في إطار علاقة تفاعليّة مبنيّة على الأخذ والعطاء من أجل رؤية مستقبليّة واضحة تهدف إلى البناء لا الهدم.

5 - إبطال للحدود وعبور للثقافات:

صار جليّا عندنا بأنّ الترجمة عمل ثقافي ينتج عنه تثاقف طويل الأمد على صعيد الأفراد والجماعات، وهي تعبّر عن أبعاد حضاريّة قابلة للتعميم والانتشار؛ عبر تفاعل الثّقافات في إطار من العلاقات المبنيّة على التّبادل الثّقافي الحرّ، والإبداع بين مختلف الشعوب والقوميّات؛ وهي كذلك حوار ضمنيّ بين تجارب الشعوب الثقافية عبر الكلمة الفاعلة.

وبقدر ما تبتعد عن الاستعلاء الثقافي؛ بقدر ما تنجح في نشر ثقافة الانفتاح والتواصل الحر، وينغرس تأثيرها الإيجابي عميقا في وجدان المتلقّي لتصبح جزءا من تراثه الثّقافي. و ما زالت الترجمة "قوّة تشكيل رئيسيّة في تطوّر الثّقافة العالميّة، ولا تستطيع أيّة دراسة في الأدب المقارن أن تنجز دون اكتراث بالترجمة "[10]؛ لأنّها بالدرجة الأولى فعل ثقافة حيّة قادرة على تحويل وارد المجتمع إلى قوى محرّكة للطّاقات الإبداعية فيه، ولديها القدرة على تحويل الثقافة إلى فعل حضاري، وديناميّة قويّة لتغيير المجتمع، بعد أن أصبح العالم كلّه مساحة ثقافيّة واحدة في عصر العولمة تعيش نوعا من التفاعل اليومي المباشر بين مختلف أشكال الثقافات واللغات والشعوب.

وقد سبق لها أن لعبت دورا أساسا في حفظ التراث العالمي من الضياع والتلف؛ بسبب كثرة الحروب والمنازعات، والعوامل الطّبيعيّة المدمّرة. لذلك عدّت حركتها بمثابة فعل جواريّ

دائم بين القوى البشريّة ذات الثّقافات المتنوّعة القادرة على التّفاعل الإيجابي، من موقع حوار الأنداد بين ثقافات حيّة.

وتبرز أهمية الترجمة من خلال توحيد دلالات المصطلحات والمفاهيم، بهدف نشر ثقافة إنسانية مشتركة تقارب ما بين الشعوب، ولا تزيد من حدّة التّباعد والتّنافر فيما بينها على خلفيّة ثقافاتها المحلّيّة.

لقد كانت الترجمة في كلّ الحضارات وسيلة دالّة على عظمة الاختلاف وروعة التّنوع، وكانت –وما تزال– حيّزا مثبتا لكلّ جغرافيّة الوجود الإنساني، ومكانا جامعا لكلّ لغات هذا الوجود وأعراقه وتنوّع أطيافه على امتداد الزمان.

ويعود السّر في نشوء الوحدات الكبرى (لغة وثقافة وفكرا) إلى قيام هذه الوحدات على التعدّد، واتّخاذه أصلا لكلّ توحّد، ومعيارا لكلّ تفرّد؛ وجعلت هذه الوحدات من الترجمة كائنها الواصل لوجودها الممتدّ وكينونتها وثقافتها ولغاتها المتعدّدة.

إذا تنقل الترجمة السياق الثقافي قبل نقل اللغة، على حد قول ويلمارت wilmart من أنّ "مهمّة المترجم لا تقتصر على نقل اللغة، بل نقل الثقافة" [11]؛ ممّا يشير إلى حتميّة العلاقة بين الترجمة والثقافة. وهذا "يفضي حتما إلى تلمّس رهانات السّلطة، وموازين القوى بين اللغات والثّقافات، وإلى الوقوف في مواجهات ثقافية عامّة تتحكّم في رسم العلاقة بين كلّ من الترجمة والثقافة، ومردّ ذلك إلى ارتباط هذا الزّوج المفهومي بأسئلة الهويّة والذّات والآخر، كما تعكسها ممارسات ثقافيّة تستبطن جدليّات الاختلاف والتّعدّد والتّماثل والمطابقة"[12].

6 - جسر عبور بين تقديم الذّات والتّعريف بالآخر:

أدّت الترجمة ولا تزال تؤدّي أدوارا طلائعيّة في حماية التّنوّع والتّعدّد الثّقافيّ وتدعيم فلسفة "المثاقفة" والتّقارب والتّعايش بين الشعوب والحضارات. ولطالما وفّرت أرضيّة صلبة للانطلاق والإقلاع الحضاري عبر تأسيس الأرضيّة المعرفيّة، وتحديد الحدّ الأدنى من المعارف التي يقبل النّزول تحتها إلى مستويات الجهل والاستهتار المعرفيّ؛ فالأمم لا تبدأ من فراغ بل من الاستفادة من المترجمات التي ليست شيئا آخر غير تجارب السّابقين ومعارفهم وخبراتهم محفوظة بين دفّتي كتاب.

وإذا كانت الترجمة ضرورة لكلّ إقلاع حضاري؛ فإنّها في المقابل تلعب دور تيرمومتر قياس الدّورة الحضاريّة من خلال ازدهارها أو انحدارها أو انحطاطها؛ فحيثما ضعفت الترجمة وفترت وغابت، علت في الأجواء رائحة الانحطاط والاستبداد والاستعلاء العرقيّ. وحيثما ازدهرت

الترجمة، ارتفعت الواردات المعرفيّة والعلميّة وتضخّمت الصّادرات الفكريّة والفنّيّة والأدبيّة؛ وانتقلت مشكلة ضعف الشّهية القرّائيّة لدى القرّاء مع إغراءات العناوين اللاّمحدودة في المجالات اللاّمحدودة بالمقاربات اللاّمحدودة.

الترجمة وسيلة تواصل بين الشّعوب، من خلال الإسهام في ترويج الفكر الإنساني عبر نقله إلى لغات غير لغته. كما أنّها عامل إنقاذ للثّقافة من الخرق والحرق والإتلاف والضّياع والتّهميش والإقصاء، من خلال إيداعها بنوك المعرفة الإنسانية والتّاريخ الثّقافي. فلولا الترجمة العبريّة لأعمال الفيلسوف العربي ابن رشد لضاعت"الفلسفة الرّشديّة" إلى الأبد.

لقد كانت الترجمة دائما جسرا للتّواصل بين الشّعوب والحضارات على مرّ التّاريخ تعزّز التّلاقي والتّلاقح الحضاريين، وترعى التقارب الثّقافي بين الشعوب، وتدحض الصّدام وتدعم الحوار والتّبادل الثّقافيّين بين أمم الأرض، ما دامت معرفة الآخر تقود تدريجيّا إلى معرفة الذّات عن طريق المقارنة والتّواصل. كما كانت تغني اللغات وتجعلها حيّة على الدّوام وتوفّر الأرضيّة للبحث والإبداع ليقف عليها أهل البحث العلمي والإبداع قبل الشّروع في أبحاثهم، أو بناء نظريّاتهم، أو نشر إبداعاتهم.

7 - الترجمة والتّعدديّة اللّغويّة والثّقافيّة: مشترك بين مختلفين:

جرت العادة في عرف المثاقفة أن تكون عملية ذات دلالة إيجابيّة من حيث أنّها شراكة واشتراك لا تبعيّة أو هيمنة، ولأنّ "الحاجة إلى دراسة ما للآخر من نماء معرفي، لا يتمّ إلاّ عبر أداة الترجمة التي تسهم في تفعيل ثقافتنا ضدّ الرّكود الذي تشهده"[13]. وعليه، تكون الترجمة سببا في انفتاح الثقافة المحلية على بقية الثقافات وتلقيح هذه بتلك والانتفاع بها بطريقة خلاّقة ومبدعة فيما يخدم المصالح والمدركات الحضارية. فقد علّمنا تاريخ العلاقات البشريّة أنّه "لا وجود لثقافة معطية بشكل دائم أو أخرى متلقّية باستمرار. وهذا يقودنا إلى الحديث عن تداخل ثقافي متبادل في أفضل الحالات أو عن تقاطع ثقافي في أقلّها حسنا" [14].

ومن الصّعب أن نجد أدبا أو فنّا أو علما تطوّر بمعزل عن "الاحتكاك أو التّواصل بالثقافات الأخرى من خلال عمليّة الترجمة، وإلاّ كان مآل هذا الأدب أو ذاك الجمود والانحطاط نتيجة الانطواء على الذّات"[15]؛ فالمختلف لا يقوم بذاته لحاجته إلى ما يختلف عنه، وهذا لا يكون إلاّ عبر آليّة الترجمة وبالتالي المثاقفة: أو لنقل الترجمة والمثاقفة مشترك بين مختلفين. والحديث عن الترجمة إذن هو بالضرورة –كما نعتقد– حديث عن التّثاقف، وعن فعل ثقافي يضعنا أمام حقيقة التّفاعل الثّقافي بين الأمم.

لا يماري كل من يمارس الترجمة "في حقيقة أنّ النّصّ المترجَم يفقد جزءا غير يسير من ملاحته الشّكليّة وبعض تفاصيله المضمونيّة"[16]، ممّا يطرح إشكاليّة الترجمة والوعاء الثقافي، وهي مقولة يدركها كلّ من يقوم على الترجمة؛ ممّا يضع الترجمة في هذه الحالة –حسب رأينا– في سياق آليّات معيّنة يقوم بها المترجِم. وعليه، حين ينتقل -من خلالها- من نصٍّ في لغة المصدر إلى النّص في لغة الهدف، أن يحافظ على الوعاء الثّقافي للّغتين المنقول منها والمنقول إليها. وفي الأمر بنية ثقافيّة، فإذا ما تعنّت وتعسّف وتنمّر لصالح اللغة المصدر، فإنّه سيكون -بذلك- متحيّزا، ممّا يدخل عمليّة المثاقفة تلك في سلبيّة وتعالٍ، فتكون ضارّة غير نافعة.

8 – الترجمة.. تفعيل للتّنوّع اللّغوي والثّقافي:

من الحقائق التي لا مراء فيها أنّ الترجمة تأتي "بالشّبهة" للنّصوص، ومن ثمّ الثقافة؛ وهي لا تقوم في فراغ وإنّما هي رهينة ظروفها، تتغيّر بتغيّر العوامل التي تسهم في إنتاجها. وقد صار لزاما عليها إذن أن تمضي إلى ما وراء سؤال الوحدة والاختلاف، وإلى ما وراء سؤال تمثّل الثقافة أو تكييفها. فما دامت الترجمة تقتضي الآخر، فإنّه لا مناص من التّعدّديّة والتّنوّع والاختلاف. ولا مناص من التّمعّن في الآخر؛ ومن هنا تغدو الترجمة تفعيلا حميدا لفكرة التّعدّد والتّنوّع والاختلاف. .

تأتي النصوص الوافدة وفي جعبتها الكثير، وتحمل في طيّاتها الآخر، المختلف، المتنوّع والمتعدّد.. أي الآخر الغريب الذي يختار من الثّقافة المستقبِلة أرضا خصبة، ليتكاثر فيها وينتشر متّخذا القارئ مطيّة لتحقيق مراده، تقدّمه لنا الترجمة مستنجدة في ذلك باللّغة، بُغية إحداث تحوّلٍ عبر رحلة القراءة.

تقبع الثّقافات بتنوّعها مختبئةً إذن هناك عميقا في البنية الكبرى للتّعدّدية الثّقافية في الأسفل ملتزمةً الهدوء حتى يأتي المترجم كفارس مغوار؛ وببراعة متناهية يكشف عنها، يحرّرها، يحاورها، ليحوّرها؛ إنّه لشيء ممتع ممزوج بالحماسة والنّشوة؛ إذ يصير المترجم بسبب الفعل التّرجمي مكتشفا ومكاشفا ومحاورا، وينتهي به المطاف محوّرا صانعا خلاّقا... أليست الترجمة إبداعا، خلقا وبعثا؟

وهكذا، تفتح الترجمة للآخر - المختلف/ المؤتلف في آن- الآفاق، ليكمل المسار مجابها كلّ التّحدّيات ولا يخشى المسافات من البداية إلى النهاية؛ متجاوزا جدليّة الهدم عبر الترجمة لتغدو آخريّة الآخر بناءا بل تغيّرا حيويّا وتقدّما بقفزات مهولة جامحا وفريدا عبر رحلة قراءة واستقبال لا تُنسى، نحو المُضيّ قدما.

وبهذا المعنى، يكون المترجم مبدعا مؤلّفا، ويصبح النّص المترجم يحاكي عمليّة الإبداع الّتي تحاول انطلاقا من اللّغة المألوفة -التي نحيى فيها وبها، ونكون غارقين فيها-، أن "تعطي الحياة للغة مغايرة، يبدو ظاهريّا أنّها اللّغة ذاتها، ولكنّها تشكّل ما هو غائب عنها، مخالف لها اختلافا لا ينفكّ يحصل، ولا ينفكّ يختفي" [17] .إنّ الترجمة هي سبيل اللغة إلى الهُجنة، ومن ثم هي سبيل الثقافة إلى الهُجنة، ولكي تنبني ثقافة هجينة بمقدار معيّن، وتكون فاعلة من واقع هُجنتها، لا بدّ لها من أن تنطلق من إيمان عميق بالاختلاف لأنّ الترجمة تنطلق من اختلاف اللّغات وتعدّدها .

ثمّة إجماع بين العلماء على أنّ هناك أنماطا ثقافية متعدّدة بمقدار ما يوجد من شعوب، فلكلّ مجتمع ثقافته التي تشير إلى خصوصيّته. ويبرز دور الترجمة في إطار تعدّدية الثقافة نتيجة للتّعدّدية اللغوية الهائلة، إذ يُقدّر علماء اللّغة عدد اللّغات الموجودة في العالم ب 2500 لغة، ويذهب بعضهم إلى أنّ هناك آلاف اللغات؛ وهذا يستدعي تعدّدية ثقافيّة كبيرة فكلّ لغة من هذه اللّغات تُشكّل أداة يتواصل بها الشّعب الذي يتكلّمها، كما تُمثّل الحاضنة التي تحتضن الموروث الحضاري لهذا الشعب؛ ونتيجة لهذه التّعدّدية اللغوية والثقافية السائدة في العالم تنبع ضرورة الترجمة وضرورة اكتساب اللغات الأجنبيّة؛ وبما أنّ إمكانية الفرد على اكتساب تلك اللغات محدودة، فإنّ الترجمة تظلُّ القناة الرّئيسة للتّثاقف والتّواصل بين الناس والأمم والثّقافات .

وبمثل هذا المعنى، فإنّ المترجمين هم "وكلاء التّغيّر في الثّقافة[18] الذين يقاومون هضم الآخر وتعطيل آخريّته بإبرازه ومنحه حقّ ظهور آخريّته، لكنّ ذلك يستلزم أن تكون "التّعدّدية الثّقافية أكثر من كونها قناعا أيديولوجيّا تتقنّع به الدّولة اللّيبيراليّة لإخفاء تكييفها للآخر في الأنا One؛ أي أن تكون التّعدّدية الثقافيّة تبادلا خلاّقا وقويّا وحقيقيّا بين الثّقافات، ومن المؤكّد أنّ هذا يمكن أن يكون، في أغلب الأحيان، عبر فعاليّة المترجمين" [19].

لا يرمي المترجم إذن، إلى إلغاء الاختلاف، وإنّما إلى توظيفه ورعايته؛ ومن هذه الزاوية تبدو الترجمة أساسا لا كعمليّة لخلق القرابة، وإنّما كفعاليّة لتكريس الغرابة.

9 – خاتمة :

لطالما عدّت التّرجمة" ظاهرة تبادلات تتطلّب رؤية واضحة ومحدّدة ومفصّلة للسياق الذي انبثقت منه والذي تتوجّه إليه"[20]؛ وبذلك فهي تبادلات بين اللغات والثقافات والحضارات في أطر واضحةٍ ومحدّدةٍ، يكون أصل انبعاثها معروفا وتوجّهها مقصودا؛ فلقد "برزت الترجمة دائما ميدانا شاملا للتواصل، واكتسبت -بناءً على المعارف الجديدة- دلالات

عدّة، ترمي في أساسها إلى تحديث المناهج التّرجميّة التي يظهر أنّ أكثرها يتّجه إلى المترجَم له ضمانا لحصول الإفهام وإيصال الرّسالة."[21]

و "ضمن الحركيّة الثقافية الواسعة الممتدّة من عصر الطّهطاوي إلى عصر العقّاد، (ف) قد دخل إلى رحاب الثقافة العربية النّهضويّة المنفتحة الشيء الكثير من ثقافات الغرب الأوروبي بامتداداته الأمريكية، وكانت له نتائجه العامّة "[22]. ومن هنا نستنتج أنّ:

1 -الترجمة ضرورة أملتها ظروف علاقة الإنسان بذاته وبغيره، فمنذ وعي الإنسان بذاته وتميّزه عن الآخر، بدأ يبحث عن فهمه لهذا الآخر ليعزّز من فهمه لذاته؛ أو لتميّزه عن ذلك الآخر أو تواصله معه. ومن هذا المنطلق تعمل الترجمة على فتح الآنية على الغيريّة، وتقحم الآخر في الذّات وتوسّع دائرة التخيل لدى الإنسان، وتحفظ ذاكرة الشّعوب من الاندثار، وتجعل المرء يسافر عبر الأزمنة والأمكنة، دون أن يبارح زمانه الخاص أو مكانه الخاص.

2 - تعبّر المثاقفة عن عمليّات التّغيير والتّطوّر الثّقافيّين التي تطرأ حين تدخل جماعات من الناس تنتمي إلى ثقافتين مختلفتين أو أكثر في اتصال وتفاعل؛ يتمخّض عنه حدوث تغيّرات في الأنماط الثقافية الأصلية أو الأوّلية السّائدة.

3 - تتجسّد أهمية المثاقفة في كونها قد شكّلت ظاهرة إيجابية عرفتها المجتمعات البشريّة عبر تاريخها الطويل، وظلّت أبلغ وسيلة للتّقارب والتّواصل وتبادل المعارف والخبرات، كما كانت عاملا قويّا من عوامل تطوّر الحضارات وازدهارها.

4 - من الضّروري التّفريق بين المثاقفة والغزو الفكري، تفاديا لأيّ التباس فكلا المصطلحين يدلّ على وجود علاقة بين ثقافتين أو أكثر؛ وهذه العلاقة تكون إمّا علاقة تفاعل حضاري ومثاقفة، وإمّا علاقة استلاب حضاري وغزو فكري، فالخلط بين المصطلحين يؤدّي إلى مغالطة كبيرة.

5 - لكي تكون المثاقفة مع الآخر فاعلة ومؤثّرة ومنتجة؛ ينبغي لنا أن نعرف الذّات بالإضافة إلى معرفتنا للآخر، وهنا يتجلّى دور الترجمة، إذ أنها تساعدنا على معرفة الآخر عن طريق نقل فكره وثقافته إلينا. وقد كانت الترجمة ولا تزال في خدمة الإنسان المتحضّر، كونها الجسر الذي تعبر من خلاله ثقافات الأمم بعضها إلى بعض، فتزيد من نصيبها من المعرفة، وتعمّق متعتها في الحياة، فقد أدرك الإنسان فضل الترجمة منذ زمن بعيد كما أدرك حقائق وجوده الثقافي.

6 - تعبّر الترجمة عن إرادة ثقافية، وعن إرادة حضارية لأنّ الثقافة التي تتمكّن من استيعاب العلوم الموجودة في الوقت الذي تبدأ فيه هي بالظهور، تصطبغ بصبغة ثقافيّة، أي بوجود ثقافي متمدّن. وهذه الثقافة التي تظهر بهذا المظهر، لا ترضى بأن تتأخر عمّا يكون معلوما في غيرها من الثقافات، فتكون مهيّأة لاستيعابه وتريد أن تفرض نفسها باعتبارها وسيلة أساسية للتّعرّف على غيرها من الثّقافات.

وهذا ما يجعل أحد المؤشّرات الأساسيّة على موت ثقافة ما، هو حينما تشرع في رؤية نفسها قادرةً على أن تستغني عن الترجمة، وتعتقد أنّها بلغت الحدّ الأبعد في انعدام الأخذ بالثقافات؛ بل إنها في الواقع تشقّ طريقها إلى الموت حينما ترغب عن الأخذ عن الثّقافات الأخرى.

10 – الإحالة والتهميش:

[1] - محمد حافظ دياب: الترجمة و أسئلة النهضة العربية، الوحدة، لبنان، السنة 6 ، العدد 61-62 ؛ تشرين الأول/أكتوبر، تشرين الثاني/ نوفمبر، 1989 ، ص: 36 .

[2] – عبد العالي بوطيب: الترجمة و المصطلح، مجلة علامات في النقد، الجزء 29-07 ، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الرياض، 1997، ص :136.

[3] – Mohammed Imad Ghebeh: Recherche méthodologique des règles d'établissement d'un vocabulaire technique arabe: thèse de doctorat,Lyon 2,1991-1992 , pp :144-180 .

[4] - إيف شوفرال: الأدب المقارن، ترجمة: عبد القادر بوزيدة، دار التنوير، الجزائر، 2017 ، ط 1 ، ص: 20 .

[5] – ياسمين فيدوح: إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، دار صفحات للدراسات و النشر، دمشق، سوريا، 2009 ، ص: 70 .

[6] – Mohammed Abbassa: Bilinguisme et traduction en Espagne musulmane ,In Atelier de traduction, N°03, Université de Suceava, 2003 ,p :70 .

[7] - ياسمين فيدوح: إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، ص : 78 – 79 .

[8] - المرجع نفسه،ص : 79 .

[9] - المرجع نفسه،ص : 81 .

[10] – Susan Bassnett: Comparative Literature, a critical introduction: Oxford Blackwel, 1993, p: 160.

[11] - رشيد برهون: درجة الوعي في الترجمة، منشورات مكتبة سلمى الثقافية، تطوان، المغرب، 2003 ، ط 1 ، ص:34 .

[12] - المرجع نفسه، ص: 36 .

[13] - ياسمين فيدوح: إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، ص : 87 .

[14] - قاسم المقداد: الترجمة و المثاقفة، مجلة الآداب العالمية، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا العدد: 149 ، شتاء، 1 يناير 2012 ، السنة، 37 ، ص: 07 .

[15]- ياسمين فيدوح: مصدر سابق، ص: 87 .

[16] - قاسم المقداد: في تحليل النص المترجم، مجلّة الآداب العالمية،إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، العدد المزدوج، ربيع- صيف، 1 أبريل 2012 ، السنة 37 ، ص : 05 .

[17]- Maurice Blanchot: Traduit de… in:La part du feu , nouvelle édition, Paris : Gallimard, 2001, pp: 186 – 187.

[18] - مايكل كرونين: الترجمة والعولمة؛ ترجمة: محمود الهاشمي وعبد الودود العمراني، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2010، ص: 103.

[19] - Cheadle, Norman, Lucien Pelletier and Wilfred Laurier, Canadian cultural exchange: Translation and Transculturation, University press, 2007, p: 191.

[20] - دانيال هنري باجو: الأدب المقارن، ترجمة: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1977، ص: 66 .

[21] - ياسمين فيدوح: فن الترجمة، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا، ط 1، 2002، ص: 10 .

[22] - بومدين جلّالي: الترجمة في اختصاص الأدب المقارن أثناء زمن تأسيسه عند العرب وأثرها فيه، أعمال الملتقى الدولي الثامن في الأدب المقارن: الممارسة الأدبية عند العرب والدرس المقارن، أيام 27 - 28 -29 أفريل 2015، الجزء الثاني، مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار، عنابة، ص: 52 .

11- قائمة المصادر والمراجع:

1 – بالعربية:

أولا: الكتاب العربي أو المترجم:

- ياسمين فيدوح: إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، 2009.
- ياسمين فيدوح: فن الترجمة، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا، 2002، ط 1.
- رشيد برهون: درجة الوعي في الترجمة، منشورات مكتبة سلمى الثقافية، تطوان، المغرب، 2003، ط 1.
- إيف شوفرال: الأدب المقارن، ترجمة: عبد القادر بوزيدة، دار التنوير، الجزائر، 2017، ط1.

- دانيال هنري باجو: الأدب المقارن، ترجمة: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا،1977.
- مايكل كرونين: الترجمة والعولمة، ترجمة: محمود الهاشمي وعبد الودود العمراني، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2010.

2 – الكتاب الأجنبي:

-Mohammed Abbassa:Bilinguismeettraduction en Espagnemusulmane,In Atelier de traduction, N°03, Université de Suceava, 2003
-Maurice Blanchot:Traduit de… in :La part du feu, nouvelle édition, Paris: Gallimard, 2001.
-Susan Bassnett: Comparative Literature, a critical introduction:Oxford Blackwel, 1993.
-Cheadle,Norman,Lucien Pelletier and Wilfred Laurier, Canadian cultural exchange: Translation and Transculturation, Universitypress , 2007.

ثانيا: المقالات:

- حافظ دياب محمد :1989، الترجمة وأسئلة النهضة العربية، مجلة الوحدة، لبنان، السنة 6، العدد 61–62، تشرين الأول/أكتوبر، تشرين الثاني/ نوفمبر؛ ص: 36.
- بوطيب عبد العالي: 1997، الترجمة والمصطلح، مجلة علامات في النقد، الرياض، الجزء 29–07، ص:136.
- المقداد قاسم: 1 يناير 2012، الترجمة والمثاقفة، مجلة الآداب العالمية، سوريا، السنة 37، العدد 49، ص: 7.
- المقداد قاسم: 1 أفريل 2012، في تحليل النص المترجم، مجلّة الآداب العالمية، سوريا، السنة 37، العدد المزدوج، ص:05.

ثالثا: الملتقيات:

- جلاّلي بومدين:27 –28 –29 أفريل 2015، الترجمة في اختصاص الأدب المقارن أثناء زمن تأسيسه عند العرب و أثرها فيه،أعمال الملتقى الدولي الثامن في الأدب المقارن: الممارسة الأدبية عند العرب و الدرس المقارن؛ الجزء الثاني، مخبر الأدب العام والمقارن، جامعة باجي مختار، عنابة.

رابعا- الرّسائل الجامعية:

-Mohammed Imad Ghebeh: Recherche méthodologique des règles d'établissement d'un vocabulaire technique arabe: thèse de doctorat, Lyon 2,1991-1992 , pp :144-180.